﴿ الكرامات والخوارق ﴾

(المقالة الثامنة في منفعة الاعتقاد بها ومضرته)

يذهب كثير من الناس الى ان جميع الأديان وثنية وسماوية قائمة على قواعد الخوارق فاذا تزلزلت هذه القواعد في دين انقض الجدار وخر السقف وذهب بناء الدين حتى لا يبقى له أثر ،

قول يقوله الملاحدة ، ويوافقهم عليه رجال كل دين على حدة ، فهو حجة الدين عند أهله ، وهو الحجة عليه عند أعدائه ؛ وتلك عضلة العقد ، ومحك المنتقد ، يقول كل ذي دين : ان الخوارق التي نعتقد بها قد ثبتت عندنا بالمشاهدة بالنسبة الى قوم وبالنقل عن الثقات بالنسبة الى آخرين وقد بلغ عدد الناقلين في بعضها مبلغ التواتر الحقيقي وفي بعضها الآخر مبلغ التواتر المعنوي أو الاستفاضة أو الشهرة بين الآحاد الثقات على الأقل . وأما ما يدعيه أهل الملل الأخرى فهو كذب وافتراء ؛ أو شعوذة وسيمياء ، ويقول الملحد — لا سيما اذا دعي الى الدين : انه ليس من العدل ، ولا من مقتضى العقل ، أن ينظر طالب الحقيقة في قول أحد المدعين ، ويغفل أقوال الآخرين ، بل الصواب ان ينظر في جملتها ليتسنى له الترجيح . وقد

فعلنا ذلك فألفينا ان الآية الكبرى في كل دين هي دعوى الخوارق لزعماء الدين . واننا لنعلم ان كل دين من هذه الاديان يحرم الكذب ونعلم ان من أهل كل منها الاخيار والاشرار فلا وجه لترجيح أحدها على الآخر فلم يبق الا تصديق الجميع او تكذيب الجميع . والتصديق يستلزم التكذيب إذ لو قلت كل واحد من هؤلاء صادق لدخل في تصديق كل واحد تكذيب الآخرين لانه يدعيه وهو صادق فتكون النتيجة ان كل واحد صادق كاذب في حال واحدة وهو محال فتعين إذَنْ تكذيب الجميع

ثم أن هؤلاء المنكرين يقولون أيضاً : ان من ينشأ في دين يجوز وقوع الخوارق آنا بعد آن من كبار المتمسكين يكون عقله دائماً متقلقلا اسير الاوهام والخرافات بل يكون أُلعوبة في أيدي الدجالين والمشعوذين، الذين يلبسون ثياب الصالحين ، أو الذين يتخذون الدين حرفة يعيشون بها في سوق الغرور والغفلة . ولذلك نرى هذه الخوارق التي يدعونها تكثر ويكثر مدّعوها في البلاد التي خيمت فيها الجهالة ، وعرف أهلها بالغباوة والبلادة، واننا نعرف كثيراً من البلاد الاوربية كان أهلها يدعون كثيراً من هذه العجائب ويزعمون انهم يروون ما يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم ويحسون في أنفسهم . ومن ذلك زعمهم ان القديسين والشهداء يخرجون من قبورهم في صور نورانية فيطوفون في الارض ويأتون بعض الأعمال . ثم لما تقشعت عنها سحب الجهل ، واشرقت عليها شمس العلم ، بطلت هذه الدعاوى ، وانتقضت هاته القضايا، وطاحت تلك الاشارات، وذهبت هاتيك العبارات، ومحيت آيات الليل بآية النهار ، وصار النور بدلا من الظلام شرطاً في الإبصار ، ويقولون أيضا : ان العلم قد كشف الستار عن اكثر هذه الخوارق

للعادات ؛ وعرف علة ما أدركه من هذه العجائب والكرامات ؛ وقد حاكى العلماء بعض ما رأوه من مدهشات سحرة أفريقيا وكهنة الهنود وعرفوا علة بعض وإن لم يحاكوه . فمنهم من توصل الى الجلوس في الهواء بحيلة صناعية ومنهم أظهر للملأ أنه أطاح رأس إنسان عن بدنه ثم أعاده اليه . فتبين من استقراء هذه الأمور والبحث فيها أن منها ما له أسباب علمية صحيحة كان يعرفها بعض الناس فيكتمها عن الآخرين لما يكون له بها من السلطان عليهم . ومنها ما هو حيل وشعوذة يخيل المتمرنون عليها الى الناس أنهم يوجدون أشياء وما هم بموجديها ولكنهم قوم يخدعون

وقد رأى هؤلاء الناس ما كتب كثير من القسيسين في إنكار نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام واحتجاجهم بأنه لم يكن يحتج على نبوته إلا بما جاء به من العلم والهدى في الكتاب - وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب وزعمهم أن هذا لا يكفي في إثبات النبوة ، وأنه لا بد من إظهار الخوارق الكونية ؛ فضحكوا من احتجاجهم وزعمهم وقالوا : إن صح ما ذكرتموه فهو أقوى البراهين على صدقه وبراءته من الغش والتمويه الذي كان يتيسر له لو أراده لعلو فكره وقوة ذهنه . وقال بعض فلاسفة فرنسا منهم : إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن محتاجا الى عمل العجائب لمثل ما كان يحتاجها الأنبياء من جذب النفوس الى الإيمان به فإنه كان يقرأ القرآن بسم الله في حال وجد ووله روحاني ينتقل تأثيره من نفسه الى نفوس من يسمعه فيكون ذلك جاذبا لهم الى الإيمان ؛ بجاذبي الإذعان والوجدان ؛ إيمانا يملك على النفس أمرها حتى لا يمكنها الانسلال منه وإن قامت في سبيله من الأهوال ما يشيب النواصي ، ويدك الصياصي . فأين هذا الإيمان من إيمان قوم رأوا

أعجوبة لا يدركون سرها فخضعوا لصاحبها وسلموا بما يقول، وإن لم تدرك فائدته العقول؛ حتى إذا ما غاب عنهم برهة من الزمان، عبدوا ما يصوغون من الاوثان؛ فإذا كانت فائدة المعجزات جذب النفوس إلى الإيمان فلا شك ان هذه الفائدة أظهر في القرآن منها في سائر المعجزات ولذلك كان ايمان المسلمين أشد من إيمان جميع اتباع الانبياء الآخرين

وقال أحد القسيسين العلماء: إننا نفضل الانجيل على القرآن بما فيه من كثرة الخوارق والعجائب المنسوبة الى صاحبه على أن القرآن لم يسند الى من جاء به عجيبة واحدة وانما ذكرت فيه العجائب حكاية عن السابقين ويقول في جواب الذين طالبوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) بالآيات « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (قال) ولكننا صرنا الى عصر تعد فيه الخوارق من العقبات في طريق الإيمان ويفضل فيها القرآن على الانجيل بذلك

هذا مجمل اعتقاد خواص الناس في الاقطار الغربية في الخوارق والعجائب وهو اعتقاد اكثر الذين يتعلمون على طريقتهم في البلاد الشرقية وهذا الصنف المتعلم هو صاحب السلطة على غير المتعلم وإننا نراه لا يوجد في بلاد الا ويمحو نمواً مستمراً بطيئاً كان أو سريعاً ، ونرى أهله ينسلون من الدين لواذاً ويمرقون منه زرافات وأفذاذاً ، وهذا رسخ في أكثر الأذهان: أن العلم والدين ضدان ، وصار المتمسكون بالدين ينفرون من العلم ، ولكن أهله يسودون عليهم تارة بالحرب وتارة بالسلم؛ وهذا يظن الناظرون في سير الانسان ان العلم يفتك بالدين؛ حتى يمحوه من لوح الوجود ولو بعد حين؛ وما هؤلاء الظانين من علم بأن في العالم ديناً حل جميع المشكلات

وأزال جميع الشبهات، وهو دين العلم والعرفان ، الى آخر الزمان ،

فعلم مما شرحناه ان أهل الأديان يرون ان للخوارق التي تجري على أيدي رجال الدين فائدة عظيمة وهي تأييد الدين بها في أثنائه كما قام بها في أول ظهوره . ولذلك قال بعض علمائنا ان كرامات أولياء شعبة من معجزات الانبياء يخشى عليه منكر الفرع أن ينكر الاصل . وقد شرحنا هذا أتم شرح في المقالة الأولى فليراجع في المجلد الثاني . ويذكرون لها فائدة أخرى وهي انتفاع الناس بالكرامة فانها إما أن تكون جلب منفعة لإنسان أو دفع مضرة عنه أو إيقاع سوء بمنكر أو فاسق ليرتدع غيره

وعلم أن من غوائل الاعتقاد بالخوارق ومضراتها تنفير خواص أهل الدنيا من الدين وهذه غائلة تتبعها غوائل أشرنا اليها آنفاً وهي تتطرق الى معجزات الانبياء كما تقدم ولم يكن ذلك من موضوعنا هنا وقد سبق لنا القول في إثبات آيات الانبياء فليراجع في الأمالي الدينية من المجلد الرابع . ونزيد الان أنها كانت في أزمنة تحقق فيها أن البشر كانوا في أشد الحاجة اليها وثبت انهم انتفعوا بها في عقولهم ونفوسهم وفي أعمالهم ومعايشهم . ذلك أنهم كانوا لم يرتقوا الى معرفة العقائد ببراهينها وكانوا ألاعيب في أيدي السحرة والدجالين يتصرفون في عقولهم ونفوسهم وأموالهم فانقذهم الانبياء باذن الله تعالى وتأييده من ذلك كله وعلموهم أن أولئك السحرة قوم مبطلون وانه ليس لهم من الامر الذي يزعمونه شيء وأن التصرف فيما وراء الاسباب التي يقدر على الوصول اليها الناس خاص بالله تعالى وحده وان تلك الاعمال التي يظهر بادي الرأي انها عن اقتدار إنما هي كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، ولولا أن جاء كل نبي بمعجزة أو اكثر لما تسنى له جذب اولئك

القوم الغلف القلوب الغلاظ الرقاب، الضعاف الاستعداد.

والدليل على أن المراد من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام تطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام: تحررها من أسر السحرة والدجالين وأن الآيات الكونية كانت هي الآلات الجاذبة لهم الى الإذعان بالتوحيد الذي هو المطهر الأكبر للعقول وانه لو أمكن جذبهم بالآيات العلمية الادبية، لما خرق الله على أيديهم شيئا من الأمور المادية. هو بناء نبوة خاتم النبيين على الآية العلمية الكبرى. والهداية الأدبية العظمى وهي القرآن الحكيم، المنزل على النبي الأمي اليتيم، الذي علم به الاميين الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، ومكن به لهم في الأرض وجعلهم أئمة وارثين، وبلغ رسالة ربه الامم المجاورة وأمر بأن يبلغ الشاهد الغائب. ومن أصول دينه أن زمن الوحي والمعجزات قد انتهى به فلن يعود، وأن لله في الخلق سننا لن تتغير ولن تتبدل، وأن الامور تطلب بأسبابها، وأنه ليس وراء الاسباب شيء الا معونة الله تعالى وتوفيقه، فليس لمؤمن أن ييأس اذا انقطعت به الاسباب من خير يتطلبه، أو النجاة من سوء يترقبه، فثبت بهذا أن الدين القيم الذي يمكن ان يتفق مع العلم في كل زمان هو هذا الدين الذي يحكم بأن زمن المعجزات قد مضى ولا يكلف الآخذ به بأن يعتقد بخارقة على يد أحد الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أما البحث في آيات الانبياء كيف وجدت وهل كانت كلها بمحض قدرة الله تعالى التي قامت بها السماوات والارض أم كانت لها سنن روحانية خفية عن الجمهور خصهم الله تعالى بها كما خصهم بالوحي الذي هو علم خفي عن الجمهور؟ فكل ذلك مما لا يفيد البحث فيه بل ربما كان ضارا، ومبلغ العلم

فيها أنها كما قال ابن رشد قد وجدت ونقلت نقلا متواترا اعترف به المؤمنون بهم والكافرون الذين سموها سحراً لجهلهم بالتفرقة بينها وبين تلك الشعوذات والحيل الباطلة . وفي شرح المواقف ان المعجزة كل ما يراد به إثبات النبوة وان لم يكن من الخوارق .

فعلم بهذا أن آيات الانبياء عليهم السلام مصونة من إنكار المنكرين ، واعتراض الوهميين ، وأنها قد انتهت فلا يخشى أن يضر الاعتقاد بها في الزمن الحاضر وما بعده كما أنه لم يكن ضاراً في الماضي وإنما كان نافعا .

وبقي القول في كرامات الاولياء ومقتضى ما تقدم أن الاعتقاد بها يضر كما يضر الاعتقاد بالخوارق عند كهنة الوثنيين وقديسي المسيحيين والمتصوفة التي تدعيها كل الطوائف من الاحتجاج بهذه الخوارق على صحة الدين أو الاستعانة بها على تمكين اعتقاد المؤمنين ، ممنوعة بأنها من المشترك الإلزام كما تقدم في الجزء الماضي

فاذا دعوت انسانا الى دينك بحجة ان من قومك من يعمل العجائب وتظهر على يديه الخوارق يلزمك بأن في قومه ايضاً من له مثل ذلك أو ينازعك في دعوته داع آخر يحتج بمثل هذا الاحتجاج .

ووجه آخر للدفع وهو أن أهل العلم والبحث يرون دعوى الخوارق من الأدلة على بطلان الدين كما سبق آنفاً . وأما العوام فإنهم أسرى التقليد ولذلك يصدقون ما يسمعون من قومهم من الأخبار ويكذبون ما تسميه لقومك . هذا وأن دعوة الاسلام قد انتشرت في الارض انتشاراً لم يعرف ما يقاربه في دين آخر وما ذاك الا أن الدعاة اليه ما كانوا يعتمدون في الدعوة إلا على كون ما يدعون اليه صوابا عقائده معقولة ، وأحكامه مقبولة ، ولم

يعرف أنه كان للاسلام دعاة قد استحوذوا على النفوس بما أدهشوها بالكرامات والخوارق كما هو المنقول عن دعاة النصارى وغيرهم . ثم أنه قد نقل عن بعض الأولياء من الكرامات أضعاف ما نقل عن المسيح وتلامذته وعن جميع الأنبياء والمرسلين ولكن أولئك الاولياء لم يعرف في التاريخ الصحيح أنهم كانوا دعاة وأن الناس آمنوا بكراماتهم اللهم الا بعض الحكايات التي توجد في بعض كتب المناقب وقلما يوثق بشيء من رواياتها لا سيما اذا انفردت بها

ووجه آخر للدفع وهو أن أسر الخواق صار عند العامة من جميع الأمم كالصناعة المحترمة الشديدة الحاجة اليها ولا ينظر فيها الى الدلالة على صحة دين من ظهرت على يديه لا سيما بعد موته ولذلك ترى كثيراً من عامة النصارى يقصدون من اشتهر من أولياء المسلمين لقضاء الحاجات ببركاتهم وهم على نصرانيتهم . ولقد كان عمي والدي (السيد الشيخ احمد رحمه الله تعالى) مشهوراً بالصلاح والبركة فكان يرد عليه وفود الناس من المسلمين والنصارى يلتمسون بركته بالرقى والتمائم ويأخذون منه البشارات . وقد كدت أكون خليفة له رغم أنفي لأمور اتفقت لي في سن الحداثة . من ذلك أن بعض الأعراب أخذوا مني ورقة فعلقوها على كبش في غنم موبوءة فزعموا ان الموت أدبر والصحة أقبلت منذ علقت الورقة على الكبش . ومن ذلك أن إنساناً كان يصرع ويرى نفراً من الجن يضربونه فدعيت اليه فأبيت . وكذا لهم أنه لا فائدة من زيارتي له البتة فألحوا وتوسلوا بالوالدة فعدت مريضهم فشفي . وتتفق لي أمثال هذه الوقائع من كثير من المسلمين والنصارى فانتشر خبرها وكدت أكون مقصوداً بها كما كان والدي الذي كنت أنكر عليه (رحمه الله تعالى) ولولا أن

بادرت الى محاربة هذه الاعتقادات وعدم إجابة القاصدين الى ما يطلبون

وكذلك نرى كثيراً من المسلمات والمسلمين يقصدون بعض الاديار وقبور القديسين بالزيارة ويحملون اليها النذور كما يحملونها الى قبور الاولياء متوسلين بهؤلاء وأولئك وطالبين منهم قضاء الحاجات

ومن ذلك دير مار جرجس في مصر العتيقة والمير تادرس بكنيسة القبط بحارة الروم وغير ذلك مما لا يحصى . وكذلك يقصد بعض المسلمين والمسلمات بعض القسيسين الذين يشتهرون في قومهم بالعجائب وقضاء الحاجات . ولا يكاد يعتقد أحد من هؤلاء وأولئك بصحة دين غير دينه الذي نشأ عليه . وذلك أن الخوارق صارت عندهم من قبيل الصناعة والدين صار من قبيل الجنسية . وقد طال بنا المقال أكثر مما كنا نتوقع فنرجئ إتمام البحث الى الجزء الآتي وفيه نبين وجود التأويل ومناشئ القال والقيل . وما ينبغي اعتقاده في الكرامات التي أثبتناها في المقالات الأولى . وقد سئلنا عن الثابت من معجزات نبينا غير القرآن وسنجيب عنها في الجزء الآتي أيضا

باب الاخبار النبوية وآثار السلف

﴿ وفد بني تميم ﴾

عن جابر قال جاءت بنو تميم بشاعرهم وخطيبهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فنادوه : يا محمد اخرج الينا فإن مدحنا زين ، وإن سبنا شين . فسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم وهو يقول « انما ذلكم الله عز وجل فما تريدون » ؟ قالوا : نحن ناس من بني تميم جئناك بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا ولكن هاتوا » فقال الأقرع بن حابس لشابّ من شبابهم : قم فاذكر فضلك وفضل قومك فقال : الحمد